سيميائية السرد مقاربة تحليلية لرواية مملكة الزيوان للروائي حاج أحمد الصديق.

تاريخ استلام المقال: 2017/05/18 تاريخ قبول المقال للنشر 2018/03/26

هشام سعيداوي طالب دكتوراه تخصص لسانيات تطبيقية
مخبر هندسة برامج اللغات في شعب التخصص جامعة معسكر.
البريد الإلكتروني: hicham12saidaoui@gmail.com

ملخص:

حاولت من خلال بحثي هذا الوقوف على أهم ما حققته المناهج النقدية الحديثة في تحليلها للنصوص السردية الأدبية، مركزاً على أهم تلك المناهج النقدية الحديثة، والمتمثلة في السيميائيات السردية.

وقد أبرزت ذلك من خلال خطة متكونة من ستة عناصر، باسطا لذلك شقين أحدهما نظري والثاني تطبيقي، متمثلاً في مقاربة تحليلية سيميائية لرواية " مملكة الزيوان" للروائي الجزائري الدكتور "حاج أحمد الصديق " والمشهور بالزيواني

الكلمات المفتاحية: السيميائيات، السرديات، السيمياء السردية، الشعرية السردية، السيمياء والرواية، رواية مملكة الزيوان، التحليل السيميائي.

Résume:

J'ai essayé dans mon stand de recherche sur les réalisations les plus importantes des approches monétaires modernes dans son analyse des textes des récits littéraires en mettant l'accent sur les plus importants de ces approches monétaires modernes, et du récit de la sémiologie.

Il a mis en évidence à travers un plan composé de six éléments, stretching donc double, un seconde théorique et pratique, représenté par le roman sémiotiques approche analytique « Royaume Alzewan » romancier algérien Dr « "Ahmed Haj el siddik " et le célèbre Balziwani..

مقدمة: شهد الحقل السيميائي خلال السنوات الأخيرة، تطورات كبيرة، نظراً لما أصبحت تمثله هذه الدراسات من أهمية بالغة في تحليل النصوص الأدبية، فتعدّدت الأبحاث النظرية والتطبيقية، لاسيما السرديات منها، من هنا تبلورت في ذهني فكرة كتابة هذا البحث؛ رغبة مني في الوقوف على أهم ما تميزت به السيميائيات من جدة في حقل السرديات، متّخذاً من رواية مملكة الزيوان لمؤلفها الجزائري حاج أحمد الصديق، المعروف بالزيواني، عينة تطبيقية لبحثي هذا، معتمدا في بنائه على خطة تتكون من مبحثين اثنين، متناولا في الأول تعريف السيمياء وخصائص النص السردي، وهو الجانب النظري للبحث؛ أمّا المبحث الثاني فقد خصصته للجانب التطبيقي من البحث، تحت عنوان مقاربة تحليلية لسيميائية السرد في رواية مملكة الزيوان، واقفا فيه بداية على تعريف صاحب الرواية، يليه تحليل جزء من الرواية تحليلاً سيميائياً، انطلاقا من سيميائية العنوان، باعتباره أولى العتبات النصية، مروراً بسيميائية الزمان والمكان والعلاقة بينهما، من خلال أحداث السرد في الرواية، مختتماً المبحث هذا، بتحليل الوظائف السردية للشخصيات التي تضمنتها الرواية، مسدلاً الستار على البحث بخاتمة أجملت فيها أهم ما توصلت إليه من نتائج بعد نهاية هذه الرحلة البحثية القصيرة.

لكن أتساءل فأقول : هل استطاعت الدراسات السيميائية للنصوص الأدبية السردية، أن تحقّق ماعجزت عنه معظم النظريات السابقة؟

ثم مامدى استثمار الروائي الزيواني للنظرية السيميائية في سرد روايته مملكة الزيوان؟

المبحث الأول : السيميائيات والنص السردي.

أولاً: تعريف السيمياء وموضوعها.

1-تعريفها: لقد مرّت السيمياء بمراحل تاريخية عديدة منذ زمن بعيد، فقديما غالبا ما اقترن هذا المصطلح في مؤلفات العرب بعلماء كثر، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر؛ جابر بن حيان؛ حيث تحول علم الكيمياء عنده إلى ما عُرف بعلم (السيمياء) وقد كان مفهوم هذا العلم في ذلك الوقت قريباً من السحر، يقول صاحب كتاب أبجد العلوم : " السيمياء هي اسم لما هو غير حقيقي من السحر ...وسيمياء لفظ عبراني معرب أصله (سيم به) " [1] بالإضافة إلى جابر بن حيان، ابن سينا والسهروردي وابن خلدون والحلاّج وكمال الدين بن يونس وغيرهم.

كما أن الفضل الكبير لتطور مفهوم هذا العلم، يعود إلى العالم الشهير فيردنا ند دي سوسير الذي يقول عن السيمياء في كتابه ؛ محاضرات في علم اللغة :"أنها العلم الذي يدرس حياة العلامات من داخل الحياة الاجتماعية ونستطيع –إذن –أن نتصور علما يدرس حياة الرموز والدلالات المتداولة في الوسط المجتمعي ،وهذا العلم يشكل جزء من علم النفس العام، ويطلق عليه مصطلح علم الدلالة (السيميولوجيا) وهو علم يفيدنا موضوعه الجهة التي تقتنص بها الدلالات والمعاني، وما دام هذا العلم لم يوجد بعد، فلا نستطع أن نتنبأ بمصيره، غير أننا نصرح بأن له الحق في الوجود،وقد تحدد موضوعه بصفة قبلية، وليس علم اللسان إلا جزء من هذا العلم العام وسيبين لنا هذا العلم ما هو مضمون الإشارات، وأي قوانين تتحكم فيها ."[2]

---

[1] صديق القنوجي، أبجد العلوم، ط1، ص 392.

[2] بيبرغيرور : السيمياء ترجمة : أنطون أبن زيد ط 1، 1984م، منشورات عويدات، بيروت لبنان ص 50.

أما مارتينيه فيعرفها قائلا :"السيميولوجيا :" دراسة جميع السلوكيات والأنظمة التواصلية "، ونلحظ هنا بوضوح اختلاف العلماء في استعمال مصطلحين يطلقان على هذا العلم :السيميوطيقا، والسيميولوجيا وهذا الاختلاف البراجماتي لا ينفي القرب الشديد بين المصطلحين، بل وترادفهما، "فالسيميولوجيا إذن مرادفة للسيميوطيقا، وموضوعهما دراسة أنظمة العلامات، أيّاً كان مصدرها لغويا أو سننيا أو مؤشريا " [1]، فلم تعد ثمة أسباب أو مبررات تجعل أحد المصطلحين يحظى بالسيادة دون الآخر .

بينما يرى آخرون أنه يمكن تخصيص مصطلح السيميولوجيا بالتصور النظري، ومصطلح السيميوطيقا بالجانب الإجرائي التحليلي، ولهذا يستخدم المصطلح الثاني في عنونة المؤلفات التطبيقية، وممن فعل ذلك غريماس وموبسان وميشيل وكوكيه.

فقد دعا دي سوسير إلى الاهتمام بالعلامة، لمنطلقات لغوية، وإلى ما سماه بعلم السيمولوجيا أو علم منظومات العلامات، من خلال مفهومه للغة، بوصفها منظومة من العلامات، تعبر عن فكر ما، مع تركيز دائم على العلاقات التي تربط بين الوحدات والعناصر اللغوية، كما قرر دي سوسير اعتباطية العلامة اللغوية، بينما تقول السيميائية باعتباطية العلامة، مما يمنح الدوال مدلولات لا نهائية . [2]

تحتل السيميائيات في المشهد الفكري المعاصر مكانة مميزة، فهي نشاط معرفي بالغ الخصوصية، من حيث أصوله وامتداداته، ومن حيث مردوديته وأساليبه التحليلية، إنها علم يستمد أصوله ومبادئه من مجموعة كبيرة من الحقول المعرفية؛ كاللسانيات والفلسفة والمنطق والتحليل النفسي والأنتروبولوجيا

[1] جميل حمداوي : مدخل إلى المنهج السيميائي، مجلة عالم الفكر الإلكترونية العددالثالث.

[2] فرديناند دي سوسير : محاضرات في اللسانيات العامة ص 87.

(ومن هذه الحقول استمدت السيميائيات أغلب مفاهيمها وطرق تحليلها)، كما أن موضوعه غير محدد في مجال بعينه، فالسيميائيات تهتم بكل مجالات الفعل الإنساني، إنها أداة لقراءة كل مظاهر السلوك الإنساني بدءاً من الانفعالات البسيطة، مروراً بالطقوس الاجتماعية وانتهاءً بالأنساق الإيديولوجية الكبرى.

2- موضوع السيميائيات: استنادا إلى هذا، فإن الموضوع الرئيس للسيميائيات، هو السيرورة المؤدية إلى إنتاج الدلالة، أي ما يطلق عليه في الاصطلاح السيميائي السميوز (sémiosis) ،والسميوز في التصور الدلالي الغربي، هي الفعل المؤدي إلى إنتاج الدلالات وتداولها، إنها سيرورة يشتغل من خلالها شيء ما، باعتباره علامة، فالكلمة أو الشيء أو الواقعة ليست كذلك إلا في حدود إحالتها على سيرورة، فلا شيء يمكن أن يدل من تلقاء ذاته ضمن وجود أحادي في الحدود والأبعاد، فالواحد المعزول كيان لا متناه، ووحده التحقق من خلال محمول مضاف يمكن أن ينتج دلالة.[1]

وبناء عليه، فأن تكون السيميائية نسيجا من العلامات، فهذا معناه أن ما يحدد هويتها ليس مادة أصلية ولا عناصر معزولة، بل مفهوم العلاقة ذاته، فالدال (الصورة السمعية أو أي كيان يستعمل للإحالة على شيء آخر)، باعتباره أداة التعرف الأولى ينتج مدلولا وفق علاقة مبنية على ترابط اعتباطي، وهذه العلاقة هي ما يحدد فعل إنتاج المعاني وتداولها، فالوظيفة الأصلية للعلامة هي وظيفة اختلافية منبثقة عن علاقة، وليست حصيلة لمادة مضمونية مكتفية بذاتها.

[1] سعيد بنكراد، السيميائيات السردية، منشورات الزمن، الدار البيضاء-المغرب، 2001، ص43.

ثانيـــــاً- خصائص النص الســردي : إن تصنيف نص في خانة النصوص السردية، يستلزم أن يحترم ذلك النص جملة من العناصر أو القواعد الأساسية للنوع السردي، وقد أجملها عبد الفتاح كيليطو فيما يلي:[1]

1- تعلُّق السابق باللاحق: فالنهاية تتحكم في كل ما يسبقها، وحرية القائم بالسرد لا تتجلى إلا في اختيار النهاية، إذ بمجرد القيام بهذا الاختيار يفلت الزمام من يده، ويصبح أسير هذا الاختيار.

2- ارتباط تسلسل الأحداث بنوع الحكاية: فأنواع الحكاية كثيرة، وهناك أنواع تفترض تسلسلاً معينا يكون على القائم بالسرد أن يراعيه؛ فالمرور من نقطة إلى نقطة في الحكاية يكون وفقاً لجدول من الأحداث يجب تكراره، وهذا ما نلاحظه في بعض الحكايات الشعبية، وفي المقامات: فالمعروف أن منشئي المقامات احترموا التسلسل الثابت للأفعال السردية، على النحو الذي أرساه الهمذاني..

3- قاعدة تخص العرف والعادة وأفق الانتظار: حيث الأفعال السردية في تسلسلها، رهن باعتقادات القارئ حول مجرى الأمور، فالقائم بالسرد ملزم باحترام هذه الاعتقادات، إلى حدّ أنه يمكن القول مع رولان بارث: "إن القائم بالسرد فعلاً هو القارئ"[2].

فالقائم بالسرد يعرف جيداً اعتقادات القارئ، ويوجه السرد حسب مقتضياتها، والجدير بالذكر أن لكل نوع سردي عُرفاً خاصاً به .

يزخر الفضاء السردي بأشكال سردية كالخبر والقصة والنادرة والسيرة والرواية..، ويحتل السرد مكانة مهمة وحيزاً كبيراً في الثقافات الإنسانية المختلفة، فهو كما يقول بارث: "يوجد في كل الأزمنة وكل الأمكنة، وفي كل

[1] عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغرابة: دراسات بنيوية في الأدب العربي، دار الطليعة، ط2، أبريل 1983،ص29-36.

[2] المرجع السابق، الأدب والغرابة، ص 36 .

المجتمعات، يبدأ السرد مع التاريخ أو حتى مع الإنسانية، فليس ثمة شعب دون سرد، فلكل الطبقات ولكل المجتمعات الإنسانية سرادتها".[1]

إن السرد بهذا المفهوم، فعل لا حدود له، يتسع ليشمل مختلف الخطابات، سواء أكانت أدبية أم غير أدبية،

بعد ما مرّ، يلح علينا السؤال الآتي: هل من سبيل إلى الحديث عن علم السرد أو السرديات، عن خطاب يصدر عن رؤية ومنهج دقيق، ويوظف جهازاً مفاهيمياً متميزاً، من أجل مقاربة النصوص السردية وسبر أغوار الخطاب السردي؟

المبحث الثاني – مقاربة تحليلية لرواية مملكة الزيوان (قراءة سيميائية) .

أولاً–التعريف بالمؤلف الروائي حاج أحمد الصديق ((الملقب بالزيواني)): من مواليد 1967/12/19 بزاوية الشيخ المغيلي ولاية أدرار الجزائرية، وهو روائيّ وأكاديميّ، وأستاذ محاضر للسانيات النص بجامعة أدرار، من أعماله المنشورة :"التاريخ الثقافيّ لإقليم توات" و"محمد بن بادي.. حياته وأعماله" و"الدرس اللغويّ بتوات" وروايته الأخيرة التي صدرت مؤخراً " كاماراد رفيق الحيف والضياع"، والتي لاقت رواجاً وشهرة واسعة النطاق، داخل وخارج الوطن، ونتيجة لنجاح الدكتور الزّيواني في الاستفادة من التقنية السردية الحديثة في تخريجها، تلقى العديد من الطلبات لتجسيدها كفيلم، نظراً لتسليطه الضوء عن كثب لظاهرة الحرقة من الساحل الإفريقي، نحو الجنة المزعومة" أوروبا".

ثانياً– سيميائيـــة العنـــوان.

يعتبر السيميائيون العنوان سؤالاً إشكالياً، والنص هو بمثابة الإجابة عن هذا السؤال؛ حيث ((العنوان يعلن عن طبيعة النص، وهو كذلك الوسيلة التي تدلنا

[1] حسن النعمي، قراءة في هيمنة الخطاب السردي، علامات في النقد، م12، ج45، شتنبر 2002، ص136.

عن طبيعة المنهج الذي نختاره في قراءة النص، ومن ثَمَّ يعلن عن نوع القراءة المناسبة لهذا النص)).

ولهذا الاعتبار، ارتأيت أن أقف على أولى العتبات النصية المفتاحية، لفهم أسرار النص الأدبي الذي بين يدي، وهو "مملكة الزيوان" وما يحمله من حمولات فكرية وتاريخية وثقافية، جد قيمة وعميقة الدلالة والإيحاء، فلا مجال للاعتباطية مطلقاً في انتقاء العنوان من طرف الروائي حاج أحمد الصديق، فهو المعهود بخرجاته المتميزة في مجال الإبداع الأدبي.

فالعنوان " مملكة الزيوان" يتشكل من ثنائية تحمل حمولة تاريخية ثقافية، تتصل بطبيعة المنطقة التي ألّفت من أجلها هذه الرواية الجميلة والممتعة، التي لايمل القارئ من تكرار التأمل في عنوانها تكرار ومرار، نظرا لما تتضمنه من معاني متعددة، توحي بعمق أصالة المكان ((توات)) ،بحدودها من تبلكوزة نواحي قورارة شمالاً إلى فقارة الزوى بعين صالح من نواحي تديكلت جنوباً، مروراً ((بتوات الحنّة الوسطى)) .

فمملكة الزيوان أو السيرة المتخيلة لمملكة النخلة والبلح والتمر والطين والبساتين ((الجنان))، باللهجة التواتية القحة، رواية الزمن الجميل؛ حيث الجنة الساحرة الأخاذة الآسرة، وواحات النخيل المتزينة بخضرة سعفها وبنية جذعها، ونضارة وبهاء بلحها، وجمال تمرها المصفر الذهبي، ناهيك عن" الزيوان "، الذي عقد له المؤلف الحلقة الكبرى من مؤلفه .

كما تلوح في الأفق جمالية إخراج وتصميم غلاف الكتاب، التي تزركشت بفسيفساء النخلة الشاهقة المتجذرة في رمال الصحراء الذهبية، مزّينة بوليدها المتشبث بها، والذي لا يكاد ينفك عنها في الغالب إلا غلبة أو لطارئ ما، وهنا كان منبع الاستلهام "للزيواني"، بعبقرية تجمع بين الطبيعة الحقيقية للنخلة في

الوجود، وعلاقتها الوطيدة بالبيئة الصحراوية، وبين ما تشغله في فكر الزيواني خصوصاً، والإنسان التواتي عموماً.

كما تجلت –أيضاً– في الغلاف نضارة الألوان وتناسقها مع البيئة الصحراوية باصفرار كثبانها الرملية واخضرار سعف نخيلها، وانحناء جريدها تواضعاً كتواضع أهلها الكرماء، في صورة قل نظيرها وشبيهها في الطبيعة الإنسانية.

فالمشاهد للكتاب ينبهر بروعة الصورة والمنظر، لأنه بعيد عن التكلف عفوي بطبيعته، فيبقى مشدوداً مطوّلاً يتأمله ويغوص بفكره في أغوار مدلولاته ومكنوناته الضاربة في العمق.

وعليه نلحظ مدى إسهام الفنون الإنسانية في تكملت بعضها البعض، وهو ما يفرض على المؤلف أهمية الاختيار للغلاف والعنوان، بعد طول تمحيص وروية تفكير، فنشاهد ذلك التمازج والارتباط بين المتن والعنوان، بوصفهما نصين مكتوبين، مهتمين بثقافة الكلمة وبين اللوحة التشكيلية، التي تتمازج معهما أو تتقاطع، بوصفها مهتمة بثقافة الصورة، من أجل ذلك تشكلت وتمفصلت جاهزية الصورة وعنوان الرواية، مع رؤية ثقافية وبيئية مبيّتة مسبقاً من الزيواني.

والعنوان يحمل –أيضاً– رمزية دلالية ذات علاقة بمضمون النص، لكونه مفتاحاً مهما للولوج لعالم النص الحقيقي التخيلي، كما أنه لا مكان للصدفة في انتقائه لعنوان المؤلف " مملكة الزيوان"، إذ من المتفق عليه بين أهل البادية والصحراء والمطلعين على كنوز ونفائس هذه البيئة، أنّ النخلة تضم مجموعة كبيرة من عراجين التمر، تصل في الغالب للخمسة والعشرة، بل حتى العشرين في النخلة الواحدة، هذا العرجون الذي بعد حين من الدهر، سينشف ويبيس، لتحوله الطبيعة إلى ما يسمى "بالزيوان"، في عرف أهل توات، في صورة أشبه بالخيال منها للحقيقة.

لكنه من المغري جداً اعتبار الصورة شيئاً مماثلا ومطابقاً للواقع،لأنه يعني الوقوع مباشرة في فخ (الوهم المرجعي)، الذي غالباً ما أدانته ورفضته الدراسات النقدية، كما يقول "باجو".

ب –سيميائية الزمان والمكان والعلاقة بينهما في مملكة الزيوان.

من الفضول العلمي أن يستفسر المتلقي أو القارئ عن الزمن الذي حدثت فيه هذه الرواية ،لأنه أحياناً قد تعود امتداداته لحقبة تاريخية بعيدة جداً، رغبة في إبراز العناصر السردية ذات العلاقة بالمسرود ورغبة في إظهار المسرود له، ويسمى هذا النوع من الزمن، " بالزمن التاريخي"، وهو ما يتجسد بقوة في ثنايا هذه الرواية المشوقة جداً للزيواني، الشخصية الروائية الذكية، في التعامل مع الحدث بشقيه الزماني والمكاني.

1– الزمـــــن: فالزمن في الرواية " الزيوانية" حاضر بقوة الحدث، وشدة الحاجة الماسة إليه، كيف لا؛ فالمؤلف لايكاد يستغني عن أدنى لحظة من حياة الرواية، التي جسدت حياته بقالب أدبي متميز، صنعت فيه الصورة المتخيلة حبلاً وطيدا، يتّصف بأوشاج عميقة من أزمنة متعاقبة، هيئت للرواية الأرضية المناسبة لتسكب ماضيا وحاضراً وتستشرف لغد واعد، تراعى فيه القيم الدينية السامية، والتي –حسبه– حطّمتها الأعراف الصامتة، وسكت عنها رجال الدّين، في لحظة غارقة في الطول والوله والشرود، فلكأنك تشاهد في فيلم أمامك وترى عيوباً ونقائصاً، لكن هيهات أن تغير من واقع الحال شيئاً.

وإذا ما وقفنا على زمن الرواية وجدناه نوعين:

أ– **زمن قبل كتابة الرواية:** حيث للزيواني حديث ذو شجون، فهو قد تحدث مطولا واستغراقاً عن حقبة من الزمن التليد، الزمن الذي أوجد الرواية أصلا، فهو يتحدث عن أول فجر أطلّت فيه عيناه على عالم غريب عنه، لم يألفه في بطن أمه كما قال، ليجد نفسه بين لحظة من لحظات التاريخ، ودون سبق

إنذار، لتتوالى أحداث الزمن وتتسارع منذ مطلع الرواية وحتى نهايتها، مشكلة العمود الفقري لهذا العمل الأدبي المشوق، فيعمد الكاتب منذ التفريش لروايته، إلى تقديم لمحة عامة شاملة للكينونة الأولى لنشأته وترعرعه، متنقلاً عبر أزمنة عديدة من المهد، مروراً بالطفولة المليئة بالأحداث الموحشة، والتي كان لها صدى كبيراً في تسارع ونمو أحداث الرواية، انتهاء بمرحلة النضج والاستواء على العود، وعليه فقد مدّ الزمن الزيواني بمعطيات تاريخية أسهمت بشكل كبير في تشكيل لوحة أدبية فنية منقطعة النظير، حتى ولكأنّ القارئ يحس نفسه أمام فيلم عجيب يأنس به ويشدو بخياله يعيش لحظات من ذكريات أشبه بالحلم أو الخيال.

وبالرجوع أيضا لزمن قبل الرواية فهو مطلع الستينيات وبالتحديد 1965م، والذي مثّل خروج المؤلف لعالم الأحياء.

والحقُّ – أيضا– هنا هو أن الفترة الزمنية الفارقة في الرواية، هي كما ذكر الزيواني نهاية الثمانينيات من القرن الماضي، حيث انسلخت الشخصية التواتية من عاداتها القديمة المتجذرة الأصل، وارتدت عباءة الحداثة والموضة الغربية، فانعكس واقع الحال جذرياً على الشخصية البطل، ونكّس حالها من الطبع إلى التصنع والتكلف.

ب– زمـــن الكتابـــة: أما زمن التأليف فهو حديث جداً، حدده الزيواني بثلاث سنوات تقريبا أو سنتين ونيف، مابين 2011م–2013م ، وهو الزمن الذي شهد صدور أول عمل روائي على وجه الإطلاق، في ولاية أدرار،وكما يقول المؤلف:" أن سبب اهتدائي لكتابة هذا النص، هو تخوّف جميع أدباء المنطقة من سرد رواية تسرد ما شهدته توات، بل ولاتزال تشهده من أمور تتنافى وقيم الدين الحنيف، والتي كان الدافع الكبير من رفع قلم التأليف هو سببها ".

2 – المكـــــان: أما المكان في رواية " مملكة الزيوان" فلم يقل شأواً عن الزمن مطلقاً، فالزمان والمكان في حقيقة الأمر في الرواية متداخلان متمازجان، حاضران حضور دائما، قد يستحيل معه تناول أحدهما بمعزل عن الآخر، فالمكان مثله قصر الزيواني " المعروف بقصر زاوية الشيخ المغيلي" والزيواني أحد أحفاده،، حيث المكان يمثل البيئة الحقيقية لحياة المؤلف ونشأته الأولى، فهذا القصر يبعد عن مقر الولاية بحوالي 85كلم تقريباً، ضمن إقليم توات الوسطى، حيث الهدوء والراحة بعيدا عن ضجيج وصخب المدينة، فلقد كان للبيئة المكانية دورا مهما جدا في صقل موهبة وقريحة الزيواني، ناهيك عن كونها حاضنة دينية علمية بامتياز، كانت ولاتزال إلى اليوم، فهناك ضريح العالم الرباني الشهير " سيدي محمد بن عبد الكريم المغيلي" الذي شهرته أغنت عن أوصافه، حيث علم وخرج خيرت علماء المنطقة وتربى على يديه صفوة المشايخ الصوفيين.

غير أن مايدفعك للانبهار بالرواية، هو القصدية المتعمدة من الزيواني في طرق باب الحفريات السالفة، ومحاولة النبش عن الحقيقة الخفية وراء صمت علماء وسادات أهل المنطقة التواتية، وغضهم الطرف عن الكثير من الأحوال التي تحزّ في النفس حزاً، فحاول أن يكتشف تلك التحولات الاجتماعية العميقة التي مرت بها مملكتهم، خلال فترة زمنية حددها "بثلاثين سنة"، دافعه في كل ذلك تكسير طابو رعشة المكان، دون مراعاة أو حساب للمجازفة، أو إعطائها ما تستحق من التريث والعناية.

وظل المكان يشغل الحيز الأكبر من عقل الزيواني في كل برهة ولحظة تفكير من عمره، ثلاثون سنة مرت على قصرهم الوسطاني ((توات الوسطى))، اختزلها في تساؤلين اثنين هما : كيف كان قصري؟ وكيف أضحى:

تاركاً خيار الحكم في الإجابة عن السؤال الآخر للقارئ وهو : أيهما كان أحسن ماضيه أو حاضره؟

ثالثاً: الوظائف السردية للشخصيات:

ويقصد بها ما تمثّله هذه الشخصية من شخصيات لها ملامحها الخاصة في المجتمع، دون الخوض في ما قامت به هذه الشخصية في النص من أدوار، إنّما نستنبط من هذه الأدوار الموجودة في النص الدور الذي تمثله الشخصية في المجتمع.

ففي نص "مملكة الزيوان" تتنوع تلك الشخوص، وعندها تبرز ملامح كل شخصية وما تتفرد به عن غيرها .

1-الزيواني : يمثل الشخصية البطل في الرواية، فهو الرجل المتخلق المتشبع بثقافة الأجداد، الغيور على العادات والأعراف، حتى وإن طالت الحداثة قصره ومنطقته، فهو لاينفك يعاتب مجتمعاً غلبت عليه سطوت القهر الجبري للقيم المتنافية مع الدين الحنيف، وجسده حسبه أمرين اثنين هزّا نفسيته هزّاً، ألا وهما:

أ-مسألة سكوت العلماء والسادة المشايخ عن أمور معلومة من الدين بالضرورة، وأحدُّها وأمَرُّها حسبه، حرمان الأنثى من الحق في الميراث، وهو تنافي مع تعاليم الدّين الإسلامي، هذا على الرغم من وجود خيرة من السادة العلماء والمشايخ الذين يعجز اللسان عن ذكر حتى أسمائهم، وينحني القلم في محراب البيان والحق عن ذكرها .

ب-مسألة التّطيّر والتشاؤم بسبب إنجاب الأنثى (الطوبة) وتجذُّر عادات جاهلية كثيرة في المجتمع التواتي، نغصت حياة الكثير من أهل المنطقة، بل تعدّت أن شوّهت صورته، في صمت مطبق ممن يحملون مسؤولية الحديث

والضرب بعصا من حديد في كذا مسائل والتي –حسبه– كان من أشدّها بعد الأولى، قضية التطير من إنجاب البنات.

2–الداعلي وأمه "قامو" و"امبارك" : شخصيات ملازمة لبعضها البعض، مثلت طبقة معروفة في المجتمع التواتي بالخدم عند الأسياد كما كان مشهوراً منذ القدم في المجتمع التواتي،فقد كانت هذه الشخصيات تعيش في بيت الزيوانيفقد كانوا تابعين لأهل الزيواني في كل شيء، أكلهم من أكلهم ولباسهم من لباسهم بل حتى بيتهم من بيتهم، لا فرق بينهما إلا في اللون، والطاقة والعمل وقدرة التّحمّل، وكذا ليونة وخشونة كفّ اليد وباطن القدم ،أما "مبارك" فقد أصبح ملاّكاً لأرض استصلاحية بعدما كان "خمّاساً"[1] .

3– العمّة نفّوسة :شخصية ارتبطت بحزن المؤلف لأنها توفت قبل الموعد الذي كان الزيواني يأمل أن تحياه لتشاهد ماتحوّل إليه المجتمع بعد العام 1989م، لأنها كانت تحلم بواقع غير الذي حصل.

4–الأخت مرّيمو :مثلت الشخصية المسكينة الحزينة، لأنّها دفعت ثمن بوارها وعدم تعليمها وكونها"طوبة"[2]، بالرغم من جمالها الفاتن، الممزوج بين نطفة المرابطين وبويضة الشرفاء.

إذن وبتتبع مسرد الأحداث في هذه الرواية الجميلة، نلحظ عبقرية المؤلف في بسط تاريخ المنطقة ومسقط الرأس، بتقنية سردية متميزة ومتفردة، وبإبداع ودقة، ونلمح مشهداً لذلك في ص206، حين برر ميوله التاريخي بقوله: ((...مدى شغفي وحبّي لمملكة الزيوان، ومعرفة تاريخها القديم والوسيط والحديث

[1] الخمّاس: الذي يأخذ خمس الغلّة مقابل عمله، والباقي لصاحب العمل.

[2] الطوبة : هي التي لا ترث ما حبس من الميراث.

والمعاصر...معرفة حضارتها وثقافتها)).[1]هذا إن دلّ على شيئ إنّما يدل على أهمية التاريخ في حفظ تراث الأمم والشعوب والحضارات .

كما قدّم لنا الزيواني صورة عن واقع المجتمع التواتي، بنقله للقارئ تفاصيل تلك الحياة المعقدة وما أفرزته من تأثير على عادات وقيم وتقاليد الأسلاف والأجداد، من أكل وشرب، بل حتى وصف الأماكن بدقة كالزقاق، والرمل والزيوان والبلح والنخلة، وراح يصف كذلك بعضا من العادات السئة التي استفحلت وتفشت كثيراً في المجتمع التواتي، والتي طغى عليها السحر والشعوذة... وغيرها من المظاهر المشينة والمقيتة.

ويمكن أن نفسر اختيار أسماء شخصيات الرواية من طرف الزيواني ،من منطلق أنها شخصيات ذات دلالات مناسبة للمجتمع الذي عاش فيه ونشأ بين أحضانه، فماهو معروف بين أهل توات هو شيوع مثل هذه الأسماء((مرّيمو، نفوسة، قامو، أمبريكة.....)) .

ولم يغفل الروائي عن مسألة حيك حولها كلاما كثيرا، وظلت حديثا يشغل فكر العديد من الناس من أهل المنطقة، سيما منهم ضعاف النفوس والوازع الديني ومتذبذبي العقيدة، ألا وهي قضية التطير بإنجاب البنات، وكأن به يرجع بنا لعصر الجاهلية، حيث المرأة عار بالنسبة للعائلة، ونذر شؤم ونكد.

من هنا نشأت عبقرية التأليف لدى المؤلف وتشكلت أول بذور العمل الإبداعي في منطقة الجنوب في ثوب متواضع، تحكمه اللغة البسيطة، ممزوجة أحيانا ببعض التعقيد الضروري لفض اللثام عن غوامض من تراث المنطقة وتاريخها العريق.

خـــــــــاتمة

[1] حاج أحمد الصديق، رواية مملكة الزيوان، فيسير للنشر ،الجزائر،2013، ص206.

إذن وبعد هذا العرض السريع الذي استعرضت فيه الحديث عن السيمياء، وأهم خصائص النص السردي والعلاقة الوطيدة بين علم السرديات والسيميائيات، والتحول العميق الذي شهدته الدراسات السردية، وكذا المقاربة التحليلية السيميائية لرواية (مملكة الزيوان)، يمكن أن أجمل أهم النتائج المتوصل إليها وهي كالآتي :

– عرفت السرديات، مع تطور النظريات الأدبية والنقدية، وتعاظم نفوذ العلوم الإنسانية، تحولات عميقة، سواء على مستوى الموضوع أو المنهج.

– تأثّر الكثير من الروائيين المحدثين والمعاصرين بالمناهج النقدية المعاصرة المستجدة، لاسيما منها السيميائيات.

– كما تبلورت مقاربات جديدة تجمع بين الشعرية البنيوية في امتداداتها الأسلوبية والنصية والسيميائية، والشعرية الجدلية أو التأويلية المعتمدة على معطيات اللسانيات والتحليلي النفسي والفلسفة وعلم الاجتماع، متجاوزة النطاق الضيق للنمذجة الوصفية ذات الطابع العام والمجرد، في أفق الانفتاح على أسئلة وإشكاليات جديدة، تتداخل فيها الأبعاد النصية والسيميائية والتداولية والتواصلية.

– كما استطاع الروائي حاج أحمد الصديق أن يوفق في استثمار المنهج السيميائي في بناء روايته، حيث العلاقات الدلالية متنوعة في النص، واهتمامه بشتى أنواع الفعل والسلوك الإنساني والاجتماعي، فالرواية محبوكة بدقة، تتفاعل فيها الشخوص مع دلالاتها الحقيقية والمتخيلة، والزمان والمكان يصور تلك الثنائية المتلازمة التي ترسم الحدث بصورة سلسة معبرة عن واقع القص، ضمن بيئة محددة مسبقاً اختارها الروائي بتفاصيل مناسبة للحدث السردي.

– كما أنّ الرواية أفصحت عن موهبة إبداعية متميزة، تمتلك حس الكتابة والتجربة الفنية.

– تمثل رواية مملكة الزيوان أول عمل روائي في ولاية أدرار .

قائمة المصادر والمراجع:

1. عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغرابة: دراسات بنيوية في الأدب العربي، دار الطليعة، ط2، أبريل .
2. حسن النعمي، قراءة في هيمنة الخطاب السردي، علامات في النقد، م12، ج45، شتنبر 2002.
3. صديق القنوجي، أبجد العلوم، ط1، دت.
4. سعيد بنكراد، مدخل إلى السيميائيات السردية، منشورات الزمن،2001 .
5. حاج أحمد الصديق، رواية مملكة الزيوان، فيسير للنشر ،الجزائر،2013.
6. جميل حمداوي، مدخل إلى المنهج السيميائي، نقلاً عن جان كلود كوكيه وكتابه بالفرنسية. مجلة عالم الفكر ،الكويت ،المجلد الثالث مارس 1997م نسخة إلكترونية .
7. بيبرغيرور : السيمياء ترجمة : أنطون أبن زيد ط 1، 1984م، منشورات عويدات، بيروت لبنان.
8. فيردناند دي سوسير، محاضرات في علم اللسان العام، ترجمة عبدالقادر قنيني ط 1، 1987م، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء